مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٧/١٤

الأحد ٨ نيسان

الفصح المقدس

المسيح قام ـ حقاً قام

الرسالة

(أعمال الرسل ١: ١–٨)

إني قد أنشأتُ الكلامَ الأوَّلَ يا ثاوُفيلُس في جميعِ الأمورِ التي ابتدأ يسوعُ يعمَلُها ويعلِّمُ بها* إلى اليوم الذي صعِدَ فيهِ من بعدِ أن أوصَى بالروحِ القُدُس الرُّسلَ الذينَ اصطفاهُم* الذين أراهمُ أيضًا نفسَهُ حيًّا بعد تألُّمِه ببراهينَ كثيرةٍ وهو يتراءَى لهم مدَّةَ أربعينَ يومًا ويُكلِّمُهم بما يختصُّ بملكوتِ الله* وفيما هو مجتمعٌ معَهُم أوصاهُم أنْ لا تَبرَحوا مِن أورشليمَ بل انتظِروا موعِدَ الآبِ الذي سمِعتُموهُ مني* فإنَّ يوحنا عَمَّدَ بالماءِ وأمَّا أنتم فستُعمَّدون بالروح القدس لا بعدَ هذهِ الأيام بكثير* فسألَهُ المجتمعون قائلينَ يا ربُّ أفي هذا الزمانِ تردُّ المُلْكَ إلى إسرائيل* فقال لهم ليسَ لكم أن تعرفوا الأزمنَةَ أو الأوقاتَ التي جعلها الآبُ في سلطانه* لكنَّكم ستنالون قوَّةً بحلولِ الروحِ القدسِ عليكم وتكونونَ لي شُهودًا في أورشليمَ وفي جميعِ اليهوديَّةِ والسامرةِ وإلى

فيض النور

هذه الأعجوبة التي تُبهج نفوس المؤمنين ما زالت تتكرَّر سنوياً، ومنذ القرون الأولى في نفس الوقت وفي نفس المكان، نهار السبت العظيم المقدس حسب التقويم الأرثوذكسي، إذ يفيض النور المقدَّس من تلقاء ذاته من القبر المقدّس الموجود في كنيسة القيامة في مدينة القدس. هذه الأعجوبة تحصل فيما كنيسة القيامة مزدحمة بزوار الأماكن المقدسة القادمين من كافة أنحاء العالم.

يبدأ الإحتفال الرسمي بفيض النور المقدس عند العاشرة من صباح السبت العظيم بتفتيش السلطات المحليَّة (حاكم القدس ومدير الشرطة الإسرائيلي) داخل القبر المقدَّس للتأكُّد من عدم وجود مصدر للنار (ولاعة، قنديل) ويُغلق باب القبر بالشمع والعسل كما يختم ممثلو الطوائف المسيحية الأخرى غير الأرثوذكسية الشمع بخاتمهم الخاص. السلطات المحليَّة هي صورة للرومان الذين ختموا قبر المسيح عند دفنه.

عند الحادية عشرة يبدأ المسيحيون العرب القاطنون الأرض المقدسة بالترنيم داخل الكنيسة بصوت عالٍ جداً في عادة تعود إلى الزمن العثماني حيث مُنع المسيحيون من الصلاة إلاّ داخل الكنائس. وعند الثانية عشرة ظهراً يُقام تطواف لثلاث دورات حول الكنيسة برئاسة البطريرك الأرثوذكسي. في نهايته يدخل البطريرك الكنيسة ويقف أمام باب القبر وحوله الرسميون والشعب، وتكون قناديل الكنيسة والشموع مُطفأة. يخلع البطريرك حلَّته الأسقفيَّة ما عدا قميصه الأبيض (الإستيخارة)، ثم يفتشه حاكم القدس ومدير الشرطة للتأكد من انه لا يحمل شيئاً يُشعل به النار. بعدها ينزع البطريرك ختم القبر ويدخله حاملاً رزمة من ثلاث وثلاثين شمعة غير مضاءة رمزاً لعمر المسيح. يغلق باب القبر ويسود الصمت الكنيسة. يركع البطريرك في القبر ويتلو الصلوات الخاصة ملتمساً من الرب أن يُرسل نوره المقدَّس. وفجأة يُسمع أزيز ويتدفق النور من المكان الذي وُضع فيه جسد الرب على شكل شُهب زرقاء وبيضاء ليضيء عجائبياً الشموع التي في يدي البطريرك وقناديل الزيت المطفأة في القبر والقناديل العالية في الكنيسة. يخرج البطريرك ويُضيء شموع ممثلي الكنائس الأرثوذكسية والطوائف

أقصى الأرض.

الإنجيل

(يوحنا ١: ١–١٧)

في البدءِ كان الكلمةُ والكلمةُ كان عند الله وإلهًا كان الكلمة* هذا كان في البدءِ عند الله* كلٌّ بهِ كان، وبغيرهِ لم يكن شيءٌ مما كُوِّن* بهِ كانتِ الحياة والحياةُ كانت نورَ الناس* والنورُ في الظلمة يُضيءُ والظلمةُ لم تدركْهُ* كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله اسمُهُ يوحنا* هذا جاءَ للشهادة ليشهدَ للنور. لكي يؤمنَ الكلُّ بواسِطتهِ* لم يكنْ هو النور بل كان ليشهدَ للنور* كان النورُ الحقيقيُّ الذي يُنيرُ كلَّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم* في العالمِ كان والعالمُ بهِ كُوِّنَ والعالمُ لم يعرفْهُ* إلى خاصَّتهِ أتى وخاصّتُه لم تَقبَلْهُ* فأمَّا كلُّ الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يكونوا أولادًا لله الذين يؤمنون باسمِهِ* الذين لا من دمٍ ولا من مشيئةِ لحمٍ ولا من مشيئةِ رجلٍ لكنْ منَ الله وُلدوا* والكلمةُ صار جسدًا وحلَّ فينا (وقد أبصرْنا مجدَهُ مجدَ وحيدٍ من الآب) مملوءًا نِعمةً وحقًّا* ويوحنا شهِدَ لهُ وصرخ قائلاً هذا هو الذي قلتُ عنهُ إن الذي يأتي بعدي صار قبلي لأنَّهُ مُتَقَدِّمي* ومن مِلئِهِ نحن كُلُّنا أخذنا ونعمةً عوضَ نعمةٍ* لأن الناموسَ بموسى أُعطي وأمَّا النعمةُ والحقُّ

الأخرى والشعب.

كثيراً ما تحدث المؤمنون عن إضاءة الشموع التي يحملونها من تلقاء ذاتها عند فيض النور. ومن القدس تُنقل قناديل مُضاءة من شعلة القبر المقدَّس إلى كافة أنحاء العالم ليُصار إلى إضاءة شموع المؤمنين منها في خدمة الهجمة يوم الفصح. هذا النور، ولدقائق بعد انبثاقه، لا يكون محرقاً، فيعمد المؤمنون إلى تمريره حول وجوههم ولا يحترقون.

أحد رؤساء الأديار الروسية، دانيال، يروي في مذكراته (عام ١١٠٦ أو ١١٠٧) مشاهدته يوم السبت العظيم: «يدخل البطريرك الأرثوذكسي الكنيسة حاملاً شمعتين، ويركع أمام الحجر الذي وُضع عليه جسد المسيح المقدس، ثم يبدأ بالصلاة بكل تقوى وحرارة فينبثق النور المقدَّس من داخل الحجر بطيف أزرق ويُضيء شمعتي البطريرك، ثم يضيء القناديل وشموع المؤمنين». والمؤرخ الإنكليزي Vinisauf Gautier يذكر ما حصل عام ١١٩٢ عندما أراد القائد صلاح الدين مشاهدة ما يحصل في سبت النور: «عند حضور صلاح الدين انحدر النور فجأة وأنار القنديل المُطفأ، فقال مساعدو صلاح الدين ان النور نزل بواسطة اصطناعية. أُطفئ القنديل لكنه عاد وأضاء ثانية من تلقاء ذاته. أطفأه صلاح الدين أيضاً فأضاء مجدداً. عندها صرخ: «نعم، سوف أموت أو سوف أخسر مدينة القدس».

أدعيتنا في هذا الموسم المبارك أن يفيض الرب نوره في نفوسنا وعقولنا ويقودنا في مسيرتنا نحو الملكوت وننال حظوة في عيني الرب.

النزول إلى الجحيم

إن الجحيم بحسب التقليد الكتابي في العهد القديم وبحسب ما ورثه الشعب القديم من حضارات، هو المكان الذي يستقر فيه الأموات كلّهم دون تمييز. إنه المكان الذي سوف يذهب إليه كل حي بحسب سفر أيوب (٢٣:٣٠). وبين ما حمله من حضارته القديمة وما فهمه من الإعلانات الإلهية في الكتاب المقدس، فقد اعتبر إسرائيل القديم استقرار الأموات في الجحيم على أنه وجود ظلّي أو شبه وجود، إذ لا قيمة له البتة وهو أشبه بالـ«لا وجود». في عمق أعماق الأرض، حيث الجحيم، هناك ظلام دامس يحجب وجه الله فلا يستطيع الأموات أن يسبّحوه ولا حتى أن يكون لهم رجاء في خلاص الله. «هل يُحدِّثُ أحد في القبر برحمتك أو في الهلاك بحقك؟ هل تُعرف في الظلمة عجائبك وعدلك في أرض منسية؟»، يقول صاحب المزامير في مناجاة أليمة (٨٨: ١١–١٢).

أيضًا كان هناك اعتقاد بأن الأموات في الجحيم منسيون من الله، لكن أنبياء العهد القديم ما انفكوا يعلّمون أن الاستقرار في الجحيم هو مرحلي بانتظار يوم القيامة. قد تطول أو تقصر مدة الانتظار، وحده الله يعلم. كما اعتبر الأنبياء أن الأموات في الجحيم هم راقدون بانتظار القيامة العامة: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي» (دانيال ٢:١٢).

عندما صُلب الرب يسوع تحطمت أبواب الجحيم وقام الموتى من القبور. وكأننا بالرب يقول لنا أنه

فبيسوعَ المسيحِ حصلا.

تأمل

في ساعة نزول المسيح إلى الجحيم سأل رؤوس الطغاة المذهولين: «مَن هو هذا ملك المجد»؟ مَن هو هذا الذي يفعل الآن في الجحيم ما لم يُفعل فيها قبلاً على الإطلاق؟ مَن هو هذا ملك المجد الذي يُخرج من هنا المكبّلين منذ الدهر؟ مَن هو هذا الذي به انحلّت سلطتنا وجسارتنا غيرُ المقهورتين حتى الآن؟

وكانت قوّات الربّ تجيبها قائلة: «إنه الرب العزيز القويّ، الرب القوي في القتال» الكليّ القدرة وغير المنهزم. هو الذي طردكم من الأخبية السماوية ورماكم خارجاً أنتم الطغاة الأثمة الأشقياء. هو الذي سحق في مياه الأردن رؤوس تنانينكم. هو الذي جعلكم مشهداً للجميع على صليبه. شهّر بكم ونزع عنكم كلّ قوّة. هو الذي قيّدكم ورماكم في الظلمة والهوّة. هو الذي سيقضي عليكم نهائياً في النار الأبديّة وجهنّم. فلا تتأخروا، ولا تنتظروا، بل أسرعوا وأخرجوا المكبّلين الذين ابتلعتموهم إلى الآن برداءة. من الآن فصاعداً لن تكون لكم أيّة قدرة.

كانت قوّات الرب الظافرة تهتف بهذا الكلام إلى قوّات العدوّ وفي الوقت نفسه تعمل بلا هوادة. منهم من

بنزوله إلى الجحيم بدأ الذين ضُبطوا هناك بالحصول على الحرية. هذه الحرية ستجد كمالها يوم القيامة العامة.

إن نزول المسيح إلى الجحيم، في إيماننا المسيحي، هو مسألة عقائدية محورية وهو من حقائق العهد الجديد الأكيدة. فالذي بشر الأرواح السجينة التي كانت قد تمرّدت قديماً كان ينبغي أن ينزل إليها، وهو نفسه الذي «قد مضى إلى السماء وملائكة وقوّات وسلاطين مخضعة له»، على ما في رسالة القديس بطرس الأولى (٣: ١٩-٢٢). ما كان للمسيح اتصال بأسرى الجحيم لو لم يمت حقيقة كإنسان، وما كان ليمضي إلى السماء إلى يمين الله لو لم ينتصر على الموت قائماً. ما من بشارة يحملها إلى الأموات لو لم تكن خبر تحريرهم. القديس بطرس يتحدث أيضاً، في خطبة أمام اليهود في أورشليم، عن نزول المسيح إلى الجحيم (بموته) وظفره عليه (بقيامته) «بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق»، أي بتدبير إلهي، مستشهداً بصاحب المزامير الذي «سبق فرأى وتكلّم عن قيامة المسيح إنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً» (أعمال ٢: ٢٤، ٣١). لم يقل الرسول «لم ينزل إلى الهاوية»، بل «لم تُترك نفسه في الهاوية» وهذا يعني أنه نزل إليها. وفي معرض حديثه عن سر الصعود يبيّن الرسول بولس، في رسالته إلى أهل أفسس، أن المسيح الرب نزل أولاً إلى «أقسام الأرض السفلى» قبل أن «يصعد فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» (٤: ٩-١٠). هذا وفي كل مرة نتلو دستور إيماننا نعترف بأن يسوع المسيح هو الرب، وبأنه قام من بين الأموات.

قلنا إن الظلمة كانت تحجب عن الموتى وجه الله، أي إنهم هم كانوا محرومين رؤيته. لكن الهاوية والهلاك كانا مكشوفين أمام الله على الدوام (أيوب ٢٦: ٦)، وأنفس الأسرى كلها محصاة. ولما أتت ساعة الغلبة ما عاد الجحيم قادراً على الاحتفاظ بواحد من أسراه لأن المسيح ابن الله اقتحمه بذاته، بسلطان سيادته على الحياة والموت. حتى موت السيد على الصليب كان الجحيم المقر النهائي لكل حي، وما كان لنفس أن تخرج منه. لذا كان ينبغي أن ينزل المسيح بنفسه، وهو الذي لا قدرة للجحيم عليه، ليفجّر ذاك السجن الدهري من داخله فاتحاً للموتى باب الولادة الجديدة، صائراً بكر القائمين من بين الأموات على ما يسميه سِفر الرؤيا (١: ٥). هبة الحياة الأبدية ما كانت لتتحقق لو لم تسقط - نهائياً - أبواب الجحيم. هذا هو الفداء الذي طالما انتظرته البشرية المحكومة منذ آدم بالانفصال عن وجه الله، الجحيم الذي ما بعده جحيم. أما الثمرة الأبدية لهذا الفداء واستمراره فهي الكنيسة التي لن تقوى عليها أبواب الجحيم من بعد (متى ١٦: ١٨).

في انحدار المخلص إلى الجحيم

إنَّ نفسَ المخلّصِ المتألّهة قد انحدرتْ إلى الجحيم، حتى إنه، كما أشرقتْ شمسُ العدلِ على الذين على الأرض، يغمرُ النورُ بالمثلِ المتسكّعينَ تحتَ الأرضِ في الظلمةِ وظلالِ الموت. وكما بشّرَ المخلّصُ الذين على الأرضِ بالسلامِ وبالنجاةِ

هدم السجن من أساساته. آخرون يركضون ويفتشون دركات الأرض والمغاور والمعاقل. والكل من جهات مختلفة كان يأتي بالمقيّدين إلى أمام الربّ. منهم من كان يقيّد الشيطان الطاغية، وغيرهم يحرّر المقيّدين منذ الدهر.

بينما كانت تجري هذه الأحداث في الجحيم ويهتزّ كل شيء، كان الرب يقترب من الأعماق البعيدة حيث كان آدم مقيّداً بصورة متينة في موضع أعمق من غيره، وهو يسمع خطوات الربّ، وقد عرف للحال صوته وهو يمشي في السجن. فالتفت عندها إلى المحيطين به منذ الدهر وهتف بهم قائلاً: «يا أصحابي! إني أسمع رنين خطوات شخص يقترب منّا. إن استحقينا فعلاً أن يأتي إلى ههنا سوف نُطلق أحراراً! إن شاهدناه بيننا، أُنقذنا من الجحيم».

في الوقت الذي كان فيه آدم يتكلّم إلى المحكوم عليهم معه، يدخل الرب ماسكاً سلاح الصليب الظافر. ما ان واجهه آدم حتى قرع صدره من الفرح وهتف لجميع الراقدين: «ليكن الرب معكم جميعاً»! فأجابه المسيح: «ومع روحك أيضاً». من ثم يمسكه بيده ويرفعه إلى فوق قائلاً له: «استيقظ أيها النائم وقم من بين الأموات فيضيء لك المسيح» (أفسس ٥:١٤).

القديس أبيفانيوس القبرصي

للأسرى وبالنظر للعميان، وصارَ للمؤمنين علّةَ خلاص أبديّ، ولغيرِ المؤمنين توبيخاً لعصيانِهم، كذلك فعلَ للذين في الجحيم، «لكي تجثو باسم يسوعِ كلُ ركبةٍ مما في السموات وعلى الأرض وتحتَ الأرض» (فيليبي ٢:١٠). وبعدَ أنْ حلَّ هكذا المعتقلين منذُ الدهر، عادَ ثانيةً من بينِ الأمواتِ طارقاً لنا سبيلَ القيامة.

وبعدَ قيامةِ المسيحِ من بينِ الأموات، زالتْ عنهُ كلُ الانفعالات. أعني بذلك البلى الذي هو جوعٌ وعطشٌ، نومٌ وتعبٌ، وما شاكلَ ذلك. وإذا كان قد ذاقَ طعاماً بعد قيامته، ذلك ليسَ بموجبِ حاجةِ الطبيعة. فإنه لم يكن عُرضةً للجوع، بل كان ذلكَ في سبيلِ تدبيرِ خلاصِنا ليُثبتَ لنا حقيقةَ قيامتِه، ذلك أنَّ الجسد الذي تألمَ هو نفسهُ قد قامَ، وأنه لم يُهمل جزءاً من أجزاءِ طبيعته، لا جسدَهُ ولا نفسَهُ، بل قد حافظَ على جسدِهِ ونفسِهِ الناطقةِ والعاقلةِ، المريدةِ والفاعلة. وقد جلسَ - على هذه الصورة - عن يمينِ الآبِ، وهو يريدُ خلاصَنا بإرادته الإلهيّة - البشريّة، ويعملُ، من جهةٍ بفعلهِ الإلهيّ على العنايةِ بالجميع وحفظهم وسياستهم، ويعملُ، من جهةٍ أخرى، بفعله البشري على ذكرِ جميعِ العائشينَ على أرضه، ناظراً وعارفاً أنَّ الخليقةَ العقليَّة كلّها تسجدُ له، لأنَّ نفسَهُ القدوسةَ تعرفُ أنها متّحدةٌ باللهِ الكلمةِ في أقنومِهِ وأنه يُسجدُ لها معه بصفتها نفس الله، وأنها ليست مجرّدَ نفس فحسب. والصعودُ من الأرضِ إلى السماءِ والانحدارُ منها ثانيةً إنما ذلك يختصُّ بجسدٍ محدود. وقد قيل عنه: «هذا الذي ارتفعَ عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء» (أعمال ١: ١١).

ونقول بأن المسيح قد جلس بجسده عن ميامن الله الآب، ولا نقول بيمينٍ مكانيّة. فكيف تكون يمينٌ مكانيّة لمن لا يُحصر؟ واليمين واليسار تختصّان بالأجسام المحدودة. لكننا نعني بيمين الآب مجدَ لاهوته وكرامته اللذَين يقيم فيهما ابن الله قبل الدهور، بصفته إلهاً، مساوياً للآب في الجوهر، ثم بصفته قد تجسّد، هو يجلس بالجسد ليُشركَ معه جسده، فتسجد له الخليقةُ كلها بسجدة واحدة مع جسده.

القديس يوحنا الدمشقي

اثنين الفصح

عند التاسعة من صباح غد الاثنين ٩ نيسان يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس قداس اثنين الفصح في كاتدرائية القديس جاورجيوس.

ويستقبل سيادته المهنئين بالفصح المقدس يومي الأحد والإثنين في ٨ و٩ نيسان ٢٠٠٧ بين الرابعة والسابعة مساءً.

ينبوع والدة الإله

بمناسبة عيد ينبوع والدة الإله الكلّية القداسة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة السحر والقداس الإلهي عند التاسعة من صباح الجمعة ١٣ نيسان ٢٠٠٧ في كنيسة دير دخول السيدة إلى الهيكل في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت: www.quartos.org.lb